سياسة الخلفاء الراشدين

سياسة أبي بكر الصديق:

لحق الرسول بربه بعد أن دعا إليه ثلاث عشرة سنة في مكة، وعشر سنين في المدينة، فعرت الصحابة دهشة عظيمة لوفاته، حتى إن عمر نفسه قال يوم ارتحال النبي، ما مات محمد رسول الله وليبعثنه الله تعالى، فقال أبو بكر: ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا هم قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

فنفخ الصديق في قلوب أصحابه روح الصبر، وأنقذهم بما ذكرهم به من الجزع، وأرشدهم إلى ما كانوا غفلوا عنه، من أن دعوتهم إلى الله وشرعه وتوحيده، وأن صاحب هذا الشرع كان بشيرًا ونذيرًا وبشرًا رسولًا، إذا قضى فإن شرعه لن يموت، وأن الواجب أن يعملوا كلهم جميعًا لإتمام مقصده الأعلى.

وكان لزامًا بعد وفاة الشارع أن يبايع لأعظم رجل من أصحابه، يتولى من أمر الأمة ما تولاه رسولها منه، لتظل الدعوة مستحكمة، والألفة بين المؤمنين شائعة، ويكمل هذا الصرح الديني الذي أسسه صاحبه العظيم لسلامة الخلق، وليس أفضل من أبي بكر لإتمام هذا الغرض، وهو شيخ قريش بسِنّه وفضله وحسن بلائه، وهو أعرف الصحابة بمقاصد صاحب الرسالة لطول ملابسته له؛ ولأن الرسول لما مرض مرضته التي توفي بها، قال لمن حضره غيره مرة: مروا أبا بكر فليصل بالناس، وإن تفضيله له على غيره دليل ثقته به.

اجتمع الناس غداة ارتحال الرسول في سقيفة بين ساعدة برياسة سيد الخزرج سعد بن عبادة، فأذعنت الأنصار لبيعته، وقال المهاجرون[1] الأئمة من قريش، وطال الحوار فقال الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، وقال المهاجرون: نحن الأمراء، وأنتم الوزراء، وكان

---

(١) الفَرق بين الفِرَق للبغدادي، والإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والملل والنحل لابن حزم.

شاهد هذه المحاورة أبو بكر وعمر، وكان عمر هي كلامًا يريد أن يقوله فانقطع، وتقدم أبو بكر فخطب وقال: «نحن المهاجرون أول الناس إسلامًا والناس لنا تبع، ونحن عشيرة رسول الله، ونحن مع ذلك أوسط العرب أنسابا، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة، وأنتم والله الذين آووا ونصروا، وأنتم وزراؤنا في الدين ووزراء رسول الله، وأنتم إخواننا في كتاب الله تعالى، وشركاؤنا في دين الله - عز وجل - وفيما كنا فيه من سراء وضراء، والله ما كنا في خير قط إلا كنتم معنا فيه.»

ودعاهم إلى مبايعة أبي عبيدة بن الجراح أو عمر بن الخطاب، فقال عمر وأبو عبيدة ما ينبغي لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر، أنت صاحب الغار ثاني اثنين، وأمرك رسول الله بالصلاة، فأنت أحق بهذا الأمر، وطالت مرادات المؤتمرين من زعماء الأنصار والمهاجرين، ثم قام أبو بكر يدعوهم إلى الجماعة وينهاهم عن الفرقة، وقال: إني ناصح لكم في أحد هذين الرجلين أبي عبيدة وعمر، فبايعوا من شئتم منهما، فقال عمر: معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا، أنت أقدمنا صحبة لرسول الله، وأنت أفضل المهاجرين وثاني اثنين، وخليفته على الصلاة، والصلاة أفضل دين الإسلام، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك، ويتولى هذا الأمر عليك، ابسط يدك أبايعك فبايعوه، ومن الغد بويع مبايعة عامة في المسجد، ولم يتخلف عن بيعته سوى علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، وقعد علي والعباس والزبير في بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمرَ بن الخطاب ليخرجهم من بيتها، وقال له: إن أبوا فقاتلهم، فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم النار، فلقيته فاطمة فقالت: يا ابن الخطاب جئت لتحرق دارنا؟ قال: نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة، وحرص عمر كل الحرص على أخذ البيعة من علي لأبي بكر؛ لأن عليا أحد العشرة المبشرة، وما عبأ كثيرا بتخلف سعد عن البيعة، وبايع بنو هاشم بأجمعهم.

وأقام أبو بكر بعد البيعة ثلاثة أيام يقيل الناس ويستقيلهم ويقول: قد أقلتكم في بيعتي هذه، هل من كاره، هل من مبغض؟ وخطب القوم ومما قال: وايم الله ما حرصت عليها - أي الخلافة - ليلا ولا نهارًا، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية، ولقد قُلدت

أمرًا عظيمًا ما لي به طاقة ولا يد، وودت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني، فأطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم.

وأنكرت فاطمة ابنة الرسول وزوج علي بن أبي طالب حرمان زوجها الخلافة، ومنزلتها ومنزلة زوجها منزلتهما، فاستأذن أبو بكر وعمر عليهما فلم تأذن،[١] فأدخلهما علي عليها، فقالت: تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمروا، ولم تردوا لنا حقا، فحاوراها فما زادت إلا غضبًا، وقالت: لئن لقيت النبي لأشكونكما إليه وقالت لأبي بكر: لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها، فخرج أبو بكر باكيا فاجتمع إليه الناس، فقال لهم: يبيت كل رجل منكم معانقًا حليلته مسرورًا بأهله، وتركتموني وما أنا فيه، لا حاجة لي في بيعتكم، أقيلوني بيعتي، قالوا: يا خليفة رسول الله، إن هذا الأمر لا يستقيم، وأنت أعلمنا بذلك، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين، فقال: والله لولا ذلك، وما أخافه من رخاوة هذه العروة، ما بت ليلة ولي في عنق مسلم بيعة، بعد ما سمعت[٢] ورأيت من فاطمة.

---

(١) الملل والنحل لابن حزم.

(٢) يقول ابن تيمية: من المعلوم المتواتر عند الخاصة والعامة الذي لم يختلف فيه أهل العلم بالمنقولات والسير أن أبا بكر لم يطلب الخلافة لا برغبة ولا برهبة، ولا بذل فيها ما يرغب الناس به، ولا شهر عليهم سيفًا يرهبهم به، ولا كانت له قبيلة ولا أموال تنصره وتقيمه في ذلك، كما جرى من عادة الملوك أن أقاربهم ومواليهم يعاونونهم، ولا طلبها أيضابلسانه، ولا قال بايعوني؛ بل أمر بمبايعة عمر أو أبي عبيدة، ومن تخلف عن بيعته كسعد بن عبادة لم يؤذه، ولا أكرهه على المبايعة، ولا منعه حقًا له، ولا حرك عليه ساكنًا، وهذه غاية في عدم إكراه الناس على المبايعة، ثم إن المسلمين بايعوه ودخلوا في طاعته، والذين بايعوه هم الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وهم أهل الإيمان والهجرة والجهاد، ولم يتخلف عن بيعته إلا سعد بن عبادة، وأما علي وسائر بني هاشم فلا خلاف بين الناس أنهم بايعوه لكن مخلفة؛ لأنه كان يريد الأمر لنفسه رضي الله عنهم أجمعين، ثم إنه في مدة ولايته قاتل بهم المرتدين والمشركين، ولم يقاتل المسلمين، بل أعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل الردة، وأخذ يزيد الإسلام فتوحًا، وشرع في قتال فارس والروم، ومات والمسلمون محاصرون دمشق، وخرج منها أزهد مما دخل فيها، لم يستأثر دونهم بشيء ولا أمر له قرابة، ثم ولي عليهم عمر بن الخطاب ففتح الأمصار، وقهر الكفار، وأعز أهل الإيمان، وأذل أهل النفاق والعدوان، ونشر الدين، وبسط العدل في العالمين، ووضع ديوان الخراج والعطاء لأهل الدين، ومصر الأمصار للمسلمين، وخرج منها أزهد مما دخل فيها، لم يتلوث لهم بمال ولا ولّى أحدًا من أقاربه ولاية.

وقال أبو بكر لعلي:[١] «والله لقد سألت رسول الله عن هذا الأمر فقال لي: يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش[٢] عليه، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يشمخ إليه، وهو لمن يقال له هو لك، لا لمن يقول هو لي، والله لقد شاورني رسول الله في الصهر، فذكر فتيانًا من قريش، فقلت له: أين أنت من علي فقال: إني لأكره لفاطمة ميعة[٣] شبابه وحداثة سنه، فقلت له: متى كنفته يدك، ورعته عينك، حفت بهما البركة، وسبغت عليهما النعمة،[٤] فقلت ما مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك، وما كنت عرفت منك حوجاء ولا لوجاء، قلت، وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنت لك إذ ذاك خيرًا منك الآن لي، ولئن عرض بك رسول الله في هذا الأمر، فلم يكن معرضا عن غيرك، وإن قال فيك فما سكت عن سواك.»

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح، وليس ثمة ما يمنع من صحتها؛ لأن معناها تدل عليه الظواهر والوقائع، فقد ثبت أن عليا كان له وجه عند الناس حياة فاطمة،[٥] فلما ماتت لخمس وسبعين ليلة من وفاة أبيها، انصرفت وجوه الناس عنه، فعندها ضرع زوجها إلى مصالحة أبي بكر، وقال له: ما نفسنا عليك ما ساقه الله إليك من فضل وخير، ولكنا نرى أن لنا في هذا الأمر شيئا، فاستبددت به دوننا وما ننكر فضلك، وقالوا: إن مما قاله أبو عبيدة لعلي: يا ابن عم[٦] إنك حدث السن، وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالا واضطلاعا، فسلم لأبي بكر، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء، فأنت بهذا الأمر خليق وحقيق، في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك.

---

(١) رسالة أبي بكر الصديق إلى علي بن أبي طالب في شرح نهج البلاغة، ونهاية الأرب للنويري.

(٢) جاحش حامى ودافع، يقال: «جاحش عن خيط رقبته»؛ أي نفسه وهو مثل.

(٣) ميعة الشباب: أوله.

(٤) الحوجاء الحاجة، ومنه وما كان في نفسه حوجاء ولا لوجاء ولا حويجاء ولا لويجاء؛ أي حاجة.

(٥) تيسير الوصول لابن الديبع.

(٦) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

وبديهي أن الصحابة بأسرهم كانوا يحرصون على الجماعة، كما كانوا كلمة واحدة في نصرة الدين، ومثل علي بعقله وعلمه وتقواه لا تحدثه نفسه أن يسير على غير الجادة، بعد أن شاهد الإجماع على مبايعة أبي بكر، فراعى الأمر الواقع، ورأى الخير فيما تم، والسياسة مصلحة، وأكفأ الصحابة لها أبو بكر، وبهذا الإجماع من أهل الحل والعقد وعلْية الصحابة، ممن مات رسول الله وهو عنهم راض، وكانوا السابقين الأولين إلى هدايته، ثبت أن الرسول لم يوص لأحد بعده، وليس في القرآن إشارة إلى استحقاق الخلافة بالإرث، بل ولا للخلافة بالمعنى الذي عرفه الناس بعد، ولو كان هناك شيء لما وسع الصحابة، على منزلة الصديق منهم أن يبايعوه، ويغفلوا عن علي، ويتركوا وصية الرسول جانبا، وهناك أمور أدركها الصحابة بالبداهة، منها تقديم أبي بكر للصلاة؛ لأنه حِبّ الرسول وصاحبه الأكبر، وعطفه عليه ظاهر، وثقته به لا تدفع، وأدركوا أن الخلافة لعامة قريش،[1] وأن الرسول لم يخص بها أهل بيته ولا بني هاشم، حتى لا يتخيل الناس أنه ملك متوارث، «وإذا كان[2] جعفر أفضل بني هاشم بعد علي في حياته، ثم مع هذا أمّر النبي زيد بن حارثة وهو من بني كلب عليه، علم أن التقدم بفضيلة الإيمان والتقوى، وبحسب أمور أخرى، وبحسب المصلحة لا النسب، ولهذا قدم النبي أبا بكر وعمر على أقاربه؛ لأنه رسول الله، يأمر بأمر الله، وليس من الملوك الذين يقدمون بأهوائهم لأقاربهم ومواليهم وأصدقائهم، وكذلك كان أبو بكر وعمر، حتى قال عمر: من أمّر رجلًا لقرابة أو صداقة بينهما وهو يجد في المسلمين خيرًا منه، فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين.»

قال زيد بن علي: إن الخلافة فُوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها، من تسكين ثائرة الفتنة، وتطييب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريبا، وسيف أمير المؤمنين - عليه السلام - من دماء المشركين من قريش لم يجف بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي، فما كانت

---

(١) النزاع والتخاصم للمقريزي.

(٢) منهاج السنة لابن تيمية.

القلوب تميل إليه كل الميل، ولا الرقاب تنقاد له كل الانقياد، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن، والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله.

وقال أبو بكر للعباس: إن الرسول خلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم متفقين لا مختلفين، فاختاروني عليهم واليًا، ولأمورهم راعيا، وخرج أبو بكر إلى المسجد، فأقبل على الناس فقام علي فعظم حق أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقته، ثم مضى فبايعه فأقبل الناس على علي فقالوا: أصبت يا أبا الحسن وأحسنت، يقول المسعودي:[١] إنه تنوزع في بيعة علي بن أبي طالب أبا بكر، فمنهم من قال بعد موت فاطمة بعشرة أيام، وذلك بعد وفاة رسول الله بنيف وسبعين يوما، وقيل بثلاثة أشهر، وقيل ستة، وقيل غير ذلك.

أما سعد بن عبادة الذي بايعه قومه أو كادوا بالخلافة في سقيفة بين ساعدة قبل أن يشهدها أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فقد بطلت بيعته بإجماع الناس على أبي بكر، وقال: لا أبايع حتى أراميكم بما في كنانتي،[٢] وأقاتلكم بمن تبعني من قومي وعشيرتي، فترك وشأنه لم يعرض له أحد بسوء، وكان سعد يدعو «اللهم هب لي حمدًا، وهب لي مجدًا.»

وكان من أجواد الناس وأصحاب الجاه العريض والوفر المأثور، سمع عمر بعضهم يقول: إن بيعة أبي بكر فلتة فتمت، فغضب عمر وخطب فيما جرى يوم السقيفة فقال: خشينا[٣] إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة، أن يبايعوا رجلًا منهم بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع رجلًا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا.[٤]

---

(١) مروج الذهب للمسعودي.

(٢) طبقات ابن سعد.

(٣) تيسير الوصول لابن الديبع.

(٤) أي خوف تغرة أن يقتلا؛ أي خوف إيقاعهما في القتل، والتغرة مصدر أغررته إذا ألقيته في الغرر، وهي من التغرير.

والحق إن الخير كل الخير كان في الإسراع ببيعة أبي بكر، وفي حرض أبي بكر وعمر على أن تكون بيعة عامة لا يفلت منها من كان له مكانة في الصحابة؛ وذلك لأن عقلاء القوم كانوا يتخوفون العرب، والجزيرة لم تصف كلها بالإسلام صفاء يركن إليه، وارتد أكثر العرب عقبى وفاة الرسول[١] إلا أهل المدينة ومكة والطائف، وحاول بعض أهل مكة أن يرتدوا، فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بقريش وغيرهم، فاجتمعوا إليه فقال: يا أهل مكة، كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من ارتد، والله ليتمن هذا الأمر كما قال رسول الله، فامتنع أهل مكة من الردة، وسهيل بن عمرو، هذا هو أخو عامر بن لؤي الذي تولى عقد الصلح عن قريش عشر سنين، وأبى على الرسول أن يكتب في العهد «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، اكتب اسمك واسم أبيك، فقبل الرسول هذا التحكم على مضض ممن كان شاهد ذلك من الصحابة.

بعد استخلاف أبي بكر[٢] بعشرة أيام، امتنعت بعض قبائل العرب من أداء الزكاة، فمنعت شاتها وبعيرها وارتضوا بالصلاة، ولما كانت الزكاة من دعائم الإسلام، رأى أبو بكر أن الممتنع عن أدائها مرتد، ومن أنكر بعضًا قد يبلغ به الحال أن ينكر أكثر من ذلك، واستشار أبو بكر الصحابة، فأجمع رأيهم[٣]

كلهم أن يلزم أبو بكر بيته ومسجده؛ إذ لا طاقة له بقتال العرب، فقال أبو بكر: أإن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب، والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها، ولو كره المشركون، قوله الحق ووعده الحق، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق،[٤] وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، والله أيها الناس لو أفردت من جميعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده، حتى

---

(١) تاريخ أبي الفداء.

(٢) مروج الذهب للمسعودي.

(٣) الكامل للمبرد.

(٤) الزاهق الهالك والزهوق ذهاب الروح، ونقذف نغلب «بتشديد اللام» فيدمغه فيمحقه، والدمغ كسر الدماغ، بحيث يشق غشاؤه المؤدي إلى زهوق الروح.

أبلى بنفسي عذرًا أو أقتل قتلًا، والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه، واستعنت الله وهو خير معين، وعلى هذا جاهد حتى أذعنت العرب بالحق.

استبد الصديق برأيه في دفع هذه الغائلة، وأبى إلا قتال المرتدين والمتنبئين، فكان رأيه مسددا دون سائر إخوانه، وأثبت للملأ أنه خير من يجمع كلمة المسلمين، بما أوتي من نفس قوية وصبر، وعلم محكم بأفضل التجارب، فلم يترك بشدته على أهل الردة، والكذبة من متنبئة العرب، مجالًا لتسرب الضعف إلى نفوس المسلمين، وذهب وهو رجل الحرب والسلم، بهذه المفخرة من قتال النازلين على الدولة الفتية والدين الجديد، فعد رجل البأس والدهاء السياسي، كما هو رجل الرحمة واللين، لم يتلكأ عن مباغتة المرتدين ومناجزتهم قبل أن يأخذوا عدتهم، وينشروا بين الناس دعوتهم، فكان عمله كله الحكمة وبها قام الإسلام.

كتب أبو بكر لأمرائه الذين وجههم لقتال أهل الردة ما نسخته: هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله لفلان، بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، عهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره، وأمره بالجد في أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان، بعد أن يعذر[1] إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم، ولا ينظرهم، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلى أمر الله - عز وجل - وأقر له، قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل، حيث كان وحيث بلغ مراغمه،[2] لا يقبل من أحد شيئًا أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقر به قبل منه وعلمه، ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل فيه كل قتلة بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله إلا الخمس فإنه مبلغناه، وأن يمنع

---

(١) أعذر: قدم إليه عذرا.

(٢) المراغم: المذهب والمهرب والمضطرب.

أصحابه العجلة والفساد، وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيونا، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين، ويرفق بهم في السير والمنزل، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول. ا.هـ.

ومن وصايا الصديق ليزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام «إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيدًا من الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد وسر بالأدلّاء ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيان فإن في العرب غرة،[1] واقلل الكلام فإن لك ما وعى عنك، وإذا أتاك كتابي فأنفذه، فإنما أعمل على حسب إنفاذه، وإذا قدمت عليك وفود العجم فأنزلهم معظم عسكرك وأسبغ عليهم النفقة، وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين، ولا تلحنّ في عقوبة فإن أدناها وجع، ولا تسرعنّ إليها وأنت تكتفي بغيرها، واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سرائرهم، ولا تجسس عسكرك فتفضحه، ولا تهمله فتفسده.» وفي رواية أنه قال ذلك لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة.

مثال من منهاج الصديق في محاربة الناشزين على دينه، وهو لم يخرج في مدته القصيرة التي ولي فيها الخلافة عن الخطة التي رسمها الرسول، قضى على المرتدين والمتنبئين، وما سها عن التوسع في الفتوح، وبسط سلطان الإسلام، وكانت حروب الردة من أول ما علم العرب أن الانشقاق الداخلي مما يقوض دعائم الممالك، ويقصم عرا الوحدة في الأمم، وقدر أن كانت هذه الغزوات بمثابة تمرين لرجال الإسلام على الحروب الكبرى، وفيها ظهرت لهم كفاءات غريبة ساعدتهم على الفتوح بعد حين، فدكوا عروش أمم تسلسل فيها الملك قرونا، وعرفوا كيف يأخذون بمخنق الشعوب والقبائل.

أخذت العرب بعد ذلك تضيف إلى ما تعلمته من صاحب النبوة، ما هدتها إليه فطرتها السليمة، ولقنها إياه المحيط والبيئة، وأي سياسة أحكم مما قاله أبو بكر وهو

---

(١) بيت العدو: أوقع بهم ليلا من دون أن يعلموا، والغرة: الغفلة.

يشيع يزيد بن أبي سفيان لفتح الشام يوصيه بما يجب عمله، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرم مثواهم، فإنه أول خيرك إليهم، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت الذي تلي كلامهم، وإذا بلغتك عن عدوك عورة فاكتمها حتى توافيها، واستر في عسكرك الأخبار وأذك الحراس، وقال: إنك ستجد قومًا حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما حبسوا أنفسهم له يعني الرهبان، ثم قال إني موصيك بعشر: لا تغدر ولا تمثل، ولا تقتل هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلا ولا تخربن عامرًا، ولا تغل ولا تجبن.

ومن خطب أبي بكر «إنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة، وسترون بعدي ملكًا[1] عضوضًا، وأمة شعاعًا، ودمًا مفاحًا، فإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق جولة، يعفو لها الأثر وتموت السنن، فالزموا المساجد، واستشيروا القرآن، والزموا الجماعة، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد طول التناظر.» كأن أبا بكر كان يستشعر ببصيرته على نحو ما يكشف السياسي المحنك، حجب الغيب أو يكاد، أن الخلافة تنقلب إلى ملك عضوض لما يرى مما يجري في الخلفاء، ولما يبيت بعضهم من نيات تراد الدنيا في تحقيقها أكثر من الأخرى.

وخطب يومًا أهل المدينة في يوم جمعة، وكان يبلغه عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب الرسول، ويوافقهم آخرون على ذلك، فأمر أهل البيوتات ووجوه الناس أن يقربوا من المنبر فلما فرغ من خطبة الجمعة كان مما قال: «ويحكم، إني لست أتاويًا[2] أعلّم ولا بدويًا أفهم، قد حلبتكم أشطرا، وقلبتكم أبطنًا وأظهرا، فعرفت أنحاءكم وأهواءكم، وعلمت أن قوما أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأسروا الكفر في قلوبهم، فضربوا بعض أصحاب رسول الله ببعض، وولدوا الروايات فيهم، وضربوا الأمثال، ووجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانا يأذنون لهم ويصغون إليهم.»

---

(١) ملك عضوض: فيه استبداد وعنف، وأمة شعاع: متفرقة، ودم مفاح: مسفوح.

(٢) الأتاوي الغريب عن القوم.

ضبط أبو بكر الأمور بيد من حديد، ولم يترك في خلافته سبيلا إلى الشهوات وخصوصا ما أدى منها إلى الفرقة، وكان لا ينعم بشيء من مناعم الملك، بل هو في الزهد والتواضع والنسك على مثال صاحبه.

رؤي[١] يومًا في سوق من أسواق المدينة على كتفه جلد شاة، ففزعت عشيرته لذلك، وقالوا له: قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار والعرب، قال: «أفأردتم مني أن أكون ملكًا جبارًا في الجاهلية جبارًا في الإسلام، لا والله لا تكون طاعة العرب إلا بالتواضع لله، والزهد في هذه الدنيا.» وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر، وقدم إليه زعماء العرب وأشرافها وملوك اليمن، وعليهم الحلل والحبر والبرد، والوشى المثقل بالذهب والتيجان، فلما شاهدوا ما هو فيه من اللباس والزهد، وما هو عليه من الوقار والهيبة، ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم، وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد، دون من كان من عشيرته، وعليه التاج والبرود المغشاة بالذهب، فلما شاهد أبا بكر ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه.

كان الصديق موضع إجلال، بكل ما في الإجلال من المعاني، ما خرج إنسان عن رضاه، وما جسر أحد أن يجهر بذات نفسه، وأي عاقل يجرؤ على الخلاف لمن كان جمهور المسلمين يعجبون بسيرته، وكان كل هذا من العوامل الفعالة في تطبيق مفاصل سياسته، وسر تغلبها أنه لم يكن له مأرب في شيء من أمر الدنيا، ولا أحب جلب النفع إلى ولده وأهله ومواليه وعشيرته دون سائر الناس، وعرفت منزلة الصديق من نفوس قومه يوم قبض، فارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبي، وجاء علي باكيًا مسترجعًا وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر مسجى، فقال: يرحمك[٢] الله أبا بكر، كنت إلف رسول الله وأنيسه، ومستراحه وثقته، وموضع سره ومشاورته، كنت أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا وأشدهم يقينًا، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء في دين الله، وأحوطهم على رسوله، وأحدبهم على

(١) مروج الذهب للمسعودي.

(٢) الموافقة بين أهل البيت والصحابة لابن زنجويه باختصار الزمخشري (مخطوط)، وإعجاز القرآن للباقلاني.

الإسلام، وآمنهم على أصحابه، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفلهم سوابق، وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسوله هديا وسمتا، ورحمة وفضلا، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه وأوثقهم عنده، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيرًا، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر،[1] وصدقت رسول الله حين كذبه الناس، فسماك الله في تنزيله صديقًا، والذي جاء بالصدق - محمد - وصدق به - أبو بكر - وآسيته حين تخلوا عنه، وقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي، نهضت حين وهن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، لزمت منهاج رسول الله، وقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت إذا تتعتعوا، مضيت بنور إذ وقفوا، كنت والله للدين يعسوبا،[2] أولًا حين نفر عنه الناس، وآخرا حين أقبلوا، فكنت للمؤمنين أبًا رحيمًا حين صاروا عليك عيالًا، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه، ورعيت ما أهملوا، وحفظت ما أضاعوا، وكنت كما قال رسول الله آمن عليه في صحبتك وذات يدك، وكنت - كما قال - ضعيفًا في بدنك، قويًا في أمر دينك، متواضعًا في نفسك، عظيمًا عند الله، جليلًا في أعين المؤمنين، كبيرًا في أنفسهم، لم يكن لأحد فيك مغمز، ولا لقائل فيك ملمز، ولا لأحد فيك مطمع، ولا لمخلوق عندك هواه، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق، الغريب والبعيد عندك في ذلك سواء ... فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبدًا، فألحقك الله بنبيه ولا حرمنا أجرك، ولا أضلنا بعدك، وسكت الناس حتى انقضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم، وقالوا: صدقت يا ختن رسول الله.

---

(١) في الصحاح أن الرسول قال: لقد هممت أن أبعث رجالا يدعونهم إلى الإسلام، ويرغبونهم في الدين، فأبعث أبي بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل كما فعل عيسى بن مريم، فقالوا يا رسول الله: أفلا تبعث أبا بكر وعمر فقال: هما لا بد لي منهما، هما مني بمنزلة السمع والبصر.

(٢) اليعسوب: أمير النحل وذكرها، والرئيس الكبير، والسيد المقدم.

سياسة عمر بن الخطاب:

عقد أبو بكر عقد الخلافة من بعده لعمر بن الخطاب، وقد شاور فيه أصحابه من كبار رجال السياسة، وممن شاورهم عبد الرحمن بن عوف، فقال له: هو والله أفضل من رأيك فيه،[١] ولكن فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رقيقًا، ولو أُفضي الأمر إليه لترك كثيرا مما هو عليه، ويا أبا محمد قد رمقته[٢] فرأيتني إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه، واشتد المرض بالصديق فأشرف على الناس وهو يقول: أترضون بمن أستخلف عليكم، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وكتب إليه كتابًا هذا نصه: هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، وفي الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي فيها الفاجر، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فإن بر وعدل، فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن جار وبدل، فلا علم لي بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]

ودعا أبو بكر عمر[٣] فأوصاه بما أوصاه به، ثم خرج فرفع أبو بكر يديه، ثم قال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضرني فاخلفني فيهم فهم عبادك، ونواصيهم في يدك، وأصلح لهم واليهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدي نبي الرحمة، وأصلح له رعيته.

ولم يخلُ استخلاف الصديق عمر من حديث بين من كانت أنفسهم تحدثهم بالخلافة بعده، قال أبو بكر لعبد الرحمن بن عوف: «إني[٤] وليت أمركم خيركم في

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) رمقته أطلت النظر فيه.

(٣) تهذيب الأسماء للنووي.

(٤) الكامل للمبرد.

نفسي، فكلكم ورم[١] أنفه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه، ورأيتم الدنيا أقبلت ولما تقبل وهي مقبلة، حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد[٢] الديباج، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربي،[٣] كما يألم أحدكم أن ينام على حسك السعدان.»[٤]

بيد أن ما ظهر من غناء أبي بكر وحسن بلائه، ألجم الألسن فما استطاعت أن تغلظ، وكبح من جماح النفوس، فما استرسلت في تطلب ما تطال إليه، وكأن بني هاشم يئسوا من أن يستخلف سيدهم، بعد الذي كان من أبي بكر وعهده لابن الخطاب، وهم يعرفون منزلة الثاني من نفوس من تجردوا عن الغايات، ولا مصلحة لهم غير قيام أمر المسلمين، والسير في الطريق التي اختطها صاحب هذا الشرع، ورأى الصديق أن عمر أقوى عليها، ولو كانت - كما قال علي بن أبي طالب - محاباة لآثر بها ولده، واستشار المسلمين في عمر، فمنهم من رضي ومنهم من كره، ومن كره أولا رضي آخرا.

كان أول منطق نطق به ابن الخطاب حين استخلف: «إنما مثل العرب مثل جمل أنِف اتباع قائده، فلينظر قائده حيث يقود، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق.»

ولما فرغ عمر من دفن أبي بكر نفض يده عن تراب قبره، ثم قام خطيبا مكانه فقال: إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبي، فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فآلو فيه عن الجزاء والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم. قالوا فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا، وقال: اللهم إني شديد فليّني، وإني ضعيف فقوني، وإني بخيل فسخّني.

فتح عمر «الفتوح العظام في كل بلد»، ومن فتوحه مصر والشام والعراق والجزيرة وإرمينية وفارس وخوزستان وأذربيجان والجبال وطرابلس مما لم يفتح مثله على أحد

---

(١) ورم أنفه: امتلأ غضبا.

(٢) النضائد: الوسائد، واحدتها نضيدة.

(٣) الأذربي: نسبة إلى أذربيجان، ويقال أيضاالأذري.

(٤) السعدان: بوزن مرجان نبت، وهو من أفضل مرعى الإبل، وفي المثل مرعى ولا كالسعدان.

قبله ولا بعده، وما طاش له سهم، ولا التوى له علم، يحرص على حياة المسلمين، ويولي جيوشه رجالًا من أهل الفقه والعلم.

كتب إلى النعمان بن مقرن في نهاوند: «أما بعد، فإنه قد بلغني أن جموعا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله، وبمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرًا فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتنفرهم، ولا تدخلنهم غيضة، فإن رجلًا من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار.» وكان إذا أتاه نعي أحد قواده وأصحابه بكى، ولو كان جاءته الأخبار مع قتلهم بفتح بلاد عظيمة.

وهدي عمر هدي صاحبيه، ولسانه لسانهما، قال لسلمة الأشجعي لما أرسله إلى الأكراد: «سر[1] باسم الله، قاتل في سبيل الله، من كفر بالله، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين، فادعوهم إلى ثلاث خصال: ادعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة، وليس لهم في فيء المسلمين نصيب، وإن اختاروا أن يكونوا معكم، فلهم مثل الذي لكم، وعليهم مثل الذي عليكم، فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم، فإن أبوا فقاتلوهم، فإن الله ناصركم عليهم، فإن تحصنوا منكم في حصن، فسألوكم أن تنزلوا على حكم الله وحكم رسوله، فلا تنزلوهم على حكم الله، فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم، وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمة الله وذمة رسوله، فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله، وأعطوهم ذمم أنفسكم، فإن قاتلوكم فلا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا. ا.هـ.»

ارتضى بعمر أهل الحل والعقد من الصحابة ومنهم علي، لما كان من أعماله التي ابتهجت بها النفوس، وهو القائل ما أبالي إذا ما اختصم إلي رجلان لأيهما كان الحق، وهو القائل مضى لي صاحبان، عملا عملًا وسلكا طريقًا، وإني إن عملت بغير عملهما، سلك بي طريق غير طريقهما، وهو الذي قال فيه الرسول: لو كان بعدي نبي لكان عمر،

---

(١) طبقات ابن سعد.

وقال: إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وقال: أشد أمتي في أمر الله عمر، وقال فيه بعض واصفيه: إنه كان جوادًا بالحق بخيلًا بالباطل.

كانت كلمة عمر عالية في سياسته الخارجية والداخلية، مزق شمل المملكتين المجاورتين لبلاده، وعقدت في ظبات[١] سيوفه آيات النصر المبين، وسر هذا التوفيق العظيم، بعد نظره وقوة نفسه، والأخذ بمشورة أهل الرأي، وحسن اختياره العمال والرجال، والعمل بكل نافع، والانتفاع من كل قوة، وما طمعت نفسه في شيء من حطام الدنيا، فكان كصاحبيه يؤثر الخشونة[٢] ويبتعد عن كل ترف، ويريد عماله أن يتبعوه في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه، يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره، ويشتمل بالعباءة، ويحمل القربة على كتفه، مع هيبة رزقها، وكذلك كان عماله مع ما فتح الله عليه من البلاد وأوسعهم من الأموال، كان عمر يلتف في كسائه[٣] وينام في ناحية المسجد، فلما وُرِد بالهرمزان صاحب تستر جعلوا يسألون عنه فيقال: مر ههنا آنفا، فيصغر في قلب الهرمزان إذ رآه كبعض السوقة، حتى انتهى إليه وهو نائم في ناحية المسجد، فقال الهرمزان: هذا والله الملك الهنيء، يقول لا يحتاج إلى حراس وعدد، فلما جلس عمر امتلأ قلب العلج[٤] منه هيبة؛ لما رأى عنده من الجد والاجتهاد، وألبس من هيبة التقوى.

ولقد كان علي بن أبي طالب من جملة مجلس شورى عمر، شاوره مرة في غزو الروم بنفسه فقال له: إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب، لا تكن للمسلمين كانفة[٥] دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث رجلًا محربًا،[٦] واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن كانت

---

(١) الظبة بالتخفيف حد السيف، والجمع ظبات.

(٢) مروج الذهب للمسعودي.

(٣) الكامل للمبرد.

(٤) العلج: الرجل من كفار العجم، والقوي الضخم منهم، جمع علوج وأعلاج.

(٥) كنفه حاطه وصانه وبابه نصر، وكانفة واقية.

(٦) المحرب صاحب الحروب.

الأخرى كنت ردءا للناس ومثابة للمسلمين،[١] واستشار علي أيضًا في الشخوص لقتال الفرس بنفسه،[٢] فقال له: إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة، ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب، ثم لم يجتمع بحذافريه أبدًا، والعرب وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع، فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض، انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك، فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين، فإن الله - سبحانه - هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. ا.هـ.

وهكذا كان عمر لم يحارب بنفسه في حروب الفتح وهو خليفة؛ وقل أن اشترك في الغزوات في زمن الرسول.

سمع عمر مرة شيئا في بيعة الصديق وهو في مكة، وأراد أن يخطب الناس، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين لا تفعل؛ فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، وإنهم هم الذين يغلبون على قربك حتى تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها أولئك عنك كل مطير،[٣] وألا يعوها، وألا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص[٤] بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكنا، فيعي أهل العلم مقالتك، ويضعونها على

---

(١) نهج البلاغة للرضي.

(٢) يقول البلاذري في فتوح البلدان: إن الذي أشار على عمر بن الخطاب بالعدول عن قتال الفرس بنفسه، هو العباس بن عبد المطلب وجماعة من أصحاب رسول الله، وأشار عليه علي بن أبي طالب بالمسير، وعرض عمر على علي الشخوص إلى فارس فأباه.

(٣) أي ينقلونها عنك إلى كل أحد من غير أن يعرفوا معناها.

(٤) تتصل.

مواضعها، وكذلك فعل وعمل بنصيحة قارون هذه الأمة عبد الرحمن بن عوف كما عمل بنصيحة علي بن أبي طالب.

كان عمر لا يأخذه هوى في اختيار الأصلح لخدمة الدولة، وهو جد عارف بما في نفوس الناس، يضع الأشياء مواضعها ويقدرها بقدرها، قام في المسجد ذات يوم يدعو الناس إلى الجهاد ويحضهم عليه، وقال: إنكم قد أصبحتم في غير دار مقام بالحجاز، وقد فتح الله عليكم بلاد كسرى وقيصر، فسريوا إلى أرض فارس، فقام أبو عبيد بن مسعود فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أول من انتدبت من الناس، فلما انتدب أبو عبيد انتدب الناس.

وقيل لعمر أمّر على الناس رجلًا من المهاجرين والأنصار، فقال لا أُأَمر عليهم إلا أول من انتدب.

وكان عمر أبدًا على يقين من الخفي والجلي مما يدور في القاصية والدانية، ملء القلب وملء السمع، وما شئت من دهاء واستماتة في إحكام عرا المسلمين، أطلق عليه لقب أمير المؤمنين، وكان أول من لقب به، وكان يقال لأبي بكر - خليفة رسول الله - فلما ولي عمر أصبح من المتعذر أن يقال يا خليفة خليفة رسول الله، فاكتفى بلفظ الخليفة أو أمير المؤمنين.

لما طعن عمر بيد أبي لؤلؤة، وكان قتله نتيجة مؤامرة[1] دبرها له الهرمزان؛ لما كان يكنه من الحقد على العرب بعد أن ثلوا عرش فارس - كانت الخلافة أول ما فكر فيه عمر، ودمه يسيل، فاستدعى عبد الرحمن بن عوف[2] فقال له: إني أريد أن أعهد إليك، فقال: يا أمير المؤمنين، نعم إن أشرت عليَّ قبلت منك، قال: وما تريد، قال: أنشدك الله أتشير عليّ بذلك، قال: اللهم لا، قال: والله لا أدخل فيه أبدًا، قال: فهب لي صمتًا حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راضٍ، ادعُ لي عليًا وعثمان والزبير وسعدًا، قال: وانتظروا أخاكم طلحة ثلاثا - وكان متغيبا عن المدينة - فإن جاء وإلا

(١) السيادة العربية لفان فلوتن، تعريب حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم.

(٢) تاريخ الطبري.

فاقضوا أمركم بينكم، وقال لعلي: أنشدك الله يا علي إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس، أنشدك الله يا عثمان إن وليت من أمور الناس شيئًا أن تحمل بين أبي معيط على رقاب الناس، أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل أقاربك على رقاب الناس، قوموا فتشاوروا، ثم اقضوا أمركم، وليصل بالناس صهيب، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري قبل أن يفارق الحياة بساعة، فقال: قم على بابهم في خمسين رجلًا من الأنصار، فلا تدع أحدًا يدخل إليهم حتى يختاروا رجلًا منهم، وقال أوصي الخليفة من بعدي بالعرب فإنها مادة الإسلام، أن يؤخذ من صدقاتها حقها فتوضع في فقرائهم، وأوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله أن يوفي لهم بعهدهم، اللهم هل بلغت، تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة.

وقيل لعمر لما طعن يا أمير المؤمنين لو استخلفت، قال: من أستخلف لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة، لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا استخلفته، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول: إن سالمًا شديد الحب لله، فقال له رجل: أدلك على عبد الله بن عمر، فقال: قاتلك الله، والله ما أردت بهذا خيرًا، ويحك كيف أستخلف رجلًا عجز عن طلاق امرأته، لا أرب لنا في أموركم، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي، إن كان خيرًا فقد أصبنا منه، وإن كان شرًا فقد صُرف عنا، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافًا لا وزر ولا أجر إني لسعيد، انظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، ولن يضيع الله دينه.

ترك عمر الأمر شورى بين ستة من كبار الصحابة، مات الرسول وهو عنهم راضٍ، وسمى علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ابني عبد مناف، والزبير بن العوام حواري رسول الله وابن عمته، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة الخير بن عبيد الله، ليختاروا منهم رجلًا، وقال لهم إذا ولوا واليا أن يحسنوا موازرته ويعينوه إن ائتمن أحدا منهم يؤدي إليه أمانته.

وبدأت الشورى ثلاثة أيام وأراد أهلها ألا يأتين اليوم الرابع إلا وعليهم أمير منهم، وقال عمر للمقدار بن الأسود، قم على رءوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلًا وأبى واحد فاشدخ رأسه، أو اضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلًا منهم، وأبى اثنان فاضرب رءوسهما، فإن رضي ثلاثة رجلًا منهم وثلاثة رجلًا منهم، فحكموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين أن يرغبوا عما اجتمع عليه الناس.

صورة غريبة من انتخاب الخليفة وضعها عمر على غير مثال، مثل كثير من أعماله في السياسة، وفيها إبداع وعبقرية، أوحتها إليه معرفته بمرامي كل واحد من هؤلاء العظماء، وهو يتخوف انحلال أمر الأمة إذا دب دبيب الحسد إلى الصدور، وتحركت الضغائن والسخائم،[1] وهو القائل: إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التي لا جبرية فيها، واللين الذي لا وهن فيه، ويعرف أن غير الشدة لا تفيد في هذه المواقف الخطيرة، قدموا للبيعة[2] أكثرهم فضلا وأكملهم شروطا، فسارع الناس إلى طاعته، وأمنت غوائل الفتنة، على نحو ما كان سارع عمر إلى مبايعة أبي بكر يوم السقيفة، وأكره من تجافوا عن بيعته من الصحابة على البيعة باللين أولا والشدة آخرا، وكان عمل عمر هذا من أحكم ما عمل، لم يلقِ الحبل على الغارب، واجتهد في خير الأمة حيا، وما أراد أن يدعها فوضى بعد مماته.

وعرفنا مما تم من استخلاف أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان أن الخلافة عن الرسول ليست من معالم الدين،[3] ولا هي جارية مجرى العبادات الشرعية كالصلاة والصوم؛ بل أجروها مجرى الأمور الدنيوية مثل تأمير الأمراء وتدبير الحروب وسياسة الرعية، وأن الخلافة عن الرسول قد وسدت إلى واحد بعهد أو شبه عهده، ووسدت إلى آخر بعهد صريح وإلى آخر بالشورى بين أهل الحل والعقد، فجمع الإسلام النظام الجمهوري المقيد، والنظام الملكي المقيد، على ما تقضي به حالة الزمن ومصلحة الأمة، وكان في

(١) الأحقاد واحدتها سخيمة.

(٢) تاريخ الطبري.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

هذه السلطة الروحية الزمنية معًا لأول الأمر شيء من الاستبداد المعقول الذي ينظم أمر الجماعة، ويحمل الناس على الطاعة، وهي الطاعة لأولي الأمر - أي الأئمة المتأمرين على الناس - المقصود بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

عن ابن عباس قال: وضع عمر بن الخطاب على سريره فتكنفه[١] الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعني إلا ورجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحدًا أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن ليجعلك الله معهما؛ أي صاحبيك، ذلك أني كنت كثيرا أسمع من رسول الله يقول: فذهبت أنا وأبو بكر[٢] وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأظن أن يجعلك الله معهما.

وقال علي:[٣] «ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم خيرها بعد أبي بكر عمر، ثم يجعل الله الخير حيث أحب.»

---

(١) تكنفوه واكتنفوه وكنفوه تكينف ا أحاطوا به.

(٢) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي.

(٣) مسند أحمد.

سياسة عثمان بن عفان:

انتخب مجلس شورى الخلافة عثمان بن عفان خليفة في مسجد الرسول وعلى منبره، على الطريقة التي رسم عمر واستأمر بعض أهل الشورى أرباب الرأي من الرؤساء سرًا، فأشاروا بعثمان إلا قليلا، وجعل الناس يبايعون الخليفة الجديد بعد أن بايع كبار الصحابة، وتلكأ علي عن البيعة، فقال عبد الرحمن بن عوف: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]

فرجع علي يشق الناس وهو يقول: «خدعة وأيما خدعة.» وسار الخليفة الثالث بسيرة أبي بكر وعمر ست سنين، كان الناس خلالها راضين عنه، والفتوح كما كانت على عهد عمر متصلة، والأموال على المدينة دارة، ويده بالعطاء مبسوطة، يولي الولايات من يراهم أصلح الناس للعمل، ولما توسع بتوسيد العمالات إلى أهله من بني أمية، انطلقت الألسن فيه، وتحقق خوف عمر لما نصح له، ولعلي ألا يحملا أقاربهما[1] على رقاب الناس، إذا كان لهما من الأمر شيء، فوقع كلاهما في هذا الحرج فثارت النفوس، ووجد الطاعنون من عملهما بابا يلجونه إلى اللغط والشغب، وعثمان بنى

---

(١) يقول ابن تيمية في المنهاج: إن عثمان ولى أقاربه من بني أمية، وعليًا ولى أقاربه من قبل أبيه وأمه، كعبد الله وعبيد الله ابني العباس، فولى عبد الله بن العباس على البصرة، وعبيد الله بن العباس على اليمن، وولى على مكة والطائف قثم بن العباس، وقيل: إنه ولى على المدينة ثمامة بن العباس، وعلى مصر ربيبه محمد بن أبي بكر الذي رباه في حجره، وعلى خراسان جعدة بن هبيرة وهو ابن أخته أم هانئ بنت أبي طالب، وقال: إن نواب عثمان كانوا أطوع من نواب علي وأبعد عن الشر، وإن بني أمية كان رسول الله يستعملهم في حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة فيهم أبو بكر الصديق وعمر، ولا تعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله أكثر من بني عبد شمس؛ لأنهم كانوا كثيرين، وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبي في عزة الإسلام على أفضل الأرض مكة عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية، واستعمل أيضا على نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية، واستعمل أيضا خالد بن سعيد بن العاص على صدقات بني مذحج، وعلى صنعاء اليمن، واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على السرايا، ثم استعمله على البحرين، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فاستعمل عثمان من استعملهم النبي ومن جنسهم ومن قبيلتهم. ا.هـ. ومعلوم أن أبا بكر وعمر لم يعهدا لأحد من أقاربهما بالولاية حتى إن عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر، وهما هما بالفضل والصحبة، لم ير الخليفتان الأولان أن يُعهد إليهما بشيء من أمر الأمة.

على[١] أمر قد استقر قبله بسكينة وحلم وهدى ورحمة وكرم، ولم يكن فيه قوة عمر ولا سياسته، ولا فيه كمال عدله وزهده، فطُمع فيه بعض الطمع، ودخل بسبب أقاربه في الولايات والأموال أمور أُنكرت عليه فتولد من رغبة الناس في الدنيا، وضعف خوفهم من الله، ومنه ومن ضعفه هو، وما حصل من أقاربه في الولاية والمال ما أوجب الفتنة.

بدأت الفتنة من مصر بانتزاء محمد بن أبي حذيفة ابن خال معاوية بن أبي سفيان على عثمان، وكان عثمان كفله لما مات أبو حذيفة، وسار إلى مصر فصار من أشد الناس تأليبًا على عثمان، والسبب في ذلك على ما يظهر أن عبد الله بن أبي سرح أخا عثمان من الرضاعة، كان أمير مصر ولاية عثمان كلها، وكان محمودا في ولايته،[٢] موفقا في غزواته، فتح إفريقية فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف دينار، فماذا كان نصيب الأمير من هذا المال؟ لا جرم أنه شق الأمر على محمد بن أبي حذيفة وجماعة آخرين إن لم يكن لهم سهم كبير من هذه المغانم، وأنشأ ابن حذيفة هنا يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبي ويقرؤها في المسجد، ويقوم القارئ بالكتاب، فيقول: إنا لنشكو إلى الله واليكم ما عمل في الإسلام، وما صنع في الإسلام، فيحرك ساكن النفوس بهذا، حتى أرسل المصريون بضع مئات من الجند إلى المدينة يشتركون في إحراج عثمان، وكذلك فعل أهل الكوفة والبصرة.

وقيل: إن بعض الصحابة[٣] كتب بعضهم إلى بعض أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد، وكثر الناس على الخليفة، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد «وأصحاب رسول الله يرون ويسمعون ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب» ما خلا نفرًا قليلًا، وكان عبد الله بن سبأ من اليهود أسلم زمن عثمان، وأخذ يتنقل في بلدان المسلمين الحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، ثم مصر، وهو يقول بالرجعة ويزعم أن محمدًا يعود كعيسى إلى الأرض، وقال: إن عليا هو وصي محمد، وقال من أظلم ممن لم ينجز وصية رسول الله، ووثب على وصي رسول الله وتناول أمر الأمة، وادعى أن عثمان

(١) منهاج السنة لابن تيمية.

(٢) الولاة والقضاة للكندي.

(٣) تاريخ الطبري.

أخذها بغير حق، وأراد الناس على النهوض في هذا الأمر، وقال: ابدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر، فبث دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، فانتقم هذا اليهودي لقومه عما أصابهم في الحجاز في بدء الدعوة الإسلامية.

لما اشتدت الحال بعثمان، وأخذت الجموع تسير إلى المدينة كتب إلى الأمصار «رفع إلي أهل المدينة أن أقوامًا يشتمون وآخرين يضربون، فيا من ضُرب سرا وشُتم سرا، من ادعى شيئًا من ذلك فليواف الموسم، فلنأخذ بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدقوا إن الله يجزي المتصدقين.»

وتآمر عثمان وبعض الصحابة على ما كان من الناقمين، فناقشوه وناقشهم، ومما قال له عمرو بن العاص: إنك لنت لهم وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك، فتشتد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين، إن الشدة لا تنبغي لمن لا يألو الناس شرًا، واللين لمن يخلف الناس بالنصح، ولما عاتبوه على بسط المال لآل بيته قال: «إن صاحبيّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما، ومن كان منهما بسبيل احتسابا، وإن رسول الله كان يعطي قرابته، وأنا في رهط أهل عِيلة[1] وقلة معاش، فبسطتُ يدي في شيء من ذلك المال، لمكان ما أقوم به فيه، ورأيت أن ذلك لي، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه، فأمير لأمركم تبع.»

وقال في مجلس آخر: «إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي فإني لم أمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم فإن ما أعطيهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين من صلب مالي، لنفسي، ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة[2] أزمان رسول الله وأبي بكر وعمر، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي، وفني عمري، وودعت الذي لي في أهلي،

---

(١) العيلة: بالكسر الفقر.

(٢) الرغيبة: العطاء الكثير والجمع الرغائب.

قال الملحدون ما قالوا، وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا، فيجوز ذلك لمن قاله.»

ورد عليهم في كونه حمى حمى المدينة فقال: والله ما حميت إلا ما حُمي قبلي على عهد عمر لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى، وما لي من بعير غير راحلتين وما لي ثاغية ولا راغية،[١] وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيرًا وشاءً، ورد على من قال: إنه رد الحَكَم وهو طريد رسول الله، فقال: «إن رسول الله سير الحكم، وهو مكي من مكة إلى الطائف ثم رده، فرسول الله سيره ورسول الله رده.» ورد على من قال: إنه استعمل الأحداث في الولايات، فقال: إنه لم يستعمل إلا محتلما مرضيا، وعليهم أن يسألوا أهل عملهم عنهم، ولقد ولّى مَن قبله أحدث منهم، وقيل في ذلك لرسول الله أشد مما قيل له في استعماله أسامة.

ثم استمد عثمان أهل الأمصار وكتب إليهم يقول: وأُدخلت في الشورى على ملأ منهم ومن الناس، على غير طلب مني ومحبة، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون تابعا غير مستتبع، متبعا غير مبتدع، مقتديا غير متكلف، فلما انتهت الأمور وانتكث[٢] الشر بأهله، بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا تِرة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب، فطلبوا أمرًا وأعلنوا غيره، بغير حجة ولا عذر، فعابوا علي أشياء مما كانوا يرضون، وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها. ا.هـ.

ثم خطب وتاب مما فعل على المنبر، فحصبوه فأغمي عليه وحمل إلى داره لا يعي، وتقاذفته العوامل، فمروان بن الحكم المتسلط عليه يؤنب الناس ويشتد عليهم، ويقول لجيوش الأمصار: «جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! اخرجوا عنا، أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم، ولا تحمدوا غب[٣] رأيكم، ارجعوا

---

(١) الثاغية: الشاة، والراغية البعير.

(٢) نكث وانتكث: انتقض.

(٣) غب ومغبة: عاقبة.

إلى منازلكم، فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا.» ونائلة امرأة عثمان تتدخل في الأمر، وعلي ينصح لعثمان فلا يسمع له حتى نفض يده منه.

والواقع أن بسط عثمان الأموال لذوي قرباه أو إرجاعه الحَكَم طريد الرسول، أو تعديه حمى المدينة، أو استعماله الأحداث من آله، كل هذا لا يتألف منه جرم، يستوجب هذا التأليب عليه، أو يبرر إطالة الأيدي بأذاه، ولكن الكتاب الذي وجده محمد بن أبي بكر في رحل عبد من عبيد عثمان على مقربة من المدينة، وفيه خاتم عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح والي مصر، هو الذي كان العامل الأكبر والحجة القاطعة في الانحراف عنه، وفي هذا الكتاب «إذا جاءك محمد بن أبي بكر ومن معه بأنك معزول فلا تقبل واحتل له بقتلهم، وأبطل كتابهم وقر في عملك.»

فرجع محمد بن أبي بكر وأصحابه وجمعوا الصحابة ووقفوهم على الكتاب، وسألوا عثمان عن ذلك فاعترف بالختم وخط كاتبه، وحلف بالله أنه لم يأمر بذلك، فطلبوا منه مروان ليسلمه إليهم فامتنع، فازداد حنق الناس، حتى قُتل شهيدًا مظلومًا، وفتق بمقتله على المسلمين «فتق لا يرتقه جبل»، ودافع عنه علي بن أبي طالب وأقام ابنه الحسن لذلك حتى خرج هذا مصبغًا بالدم، وأقام الزبير ابنه عبد الله، وطلحة ابنه محمدًا يذبان عنه، فلم يغنوا عنه شيئا مع الألوف الهائجة التي جاءت من مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة وانضموا إلى الثائرين من أهلها، «وكانوا[1] يدًا واحدة في الشر، وكان حثالة من الناس قد ضووا إليهم، وقد مرجت عهودهم وأماناتهم، وكان أصحاب النبي الذين خذلوه كرهوا الفتنة، وظنوا أن الأمر لا يبلغ قتله، فندموا على ما صنعوا في أمره، ولعمري لو قاموا أو قام بعضهم فحثا في وجوههم التراب لانصرفوا خأسيرن.»

كانت هذه الفاجعة مبعث كل فتنة في الأمة، أدى إليها حب الولايات والشغف بالأموال التي كثرت في أيام عثمان، فكان يفيض منها على من يستحقها، وقد لاموه على استعمال ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان، وآخذوه على استعمال أخيه من الرضاع عبد الله بن أبي سرح فاتح

(١) طبقات ابن سعد.

طرابلس، وإفريقية الذي قضى على جيش الروم وقتل الملك جرجريه، وفي أيام عثمان فتحت أذربيجان وأرجان واصطخر وأصبهان وطبرستان وخراسان والجوزجان ونيسابور وطوس وسرخس ومرو وهراة وفرياب وبلخ وخوارزم والجبال، وقُتل بخراسان يزدجرد آخر ملوك الأكاسرة، وفي أيامه فُتحت جزيرة قبرص وغيرها من جزر البحر الرومي، واستصفيت بعض الحبشة إلى غير ذلك من فتوحاته التي استعمل فيها رجالا عظاما وضع ثقته بهم، وكانوا عند حسن ظنه بما أبلوه من خدمة الإسلام والمسلمين. ومن أهم المسائل التي صرفت الوجوه عنه وألّبت المغيظين المحنقين عليه، أمره بضرب عمار بن ياسر - أحد كبار الصحابة - لما جاءه يحمل إليه كتابًا من بعض أصحاب النبي،[1] ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان سنة الرسول من تطاوله في البنيان، وإفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية، وما كان من الوليد بن عقبة أمير الكوفة الذي صلى بالمسلمين وهو سكران (جلده ثمانين على شرب الخمر)، وما كان من تركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم، وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على قوم بالمدينة، ليست لهم صحبة من النبي، ثم لا يغزون ولا يذبون، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران. وعمار لا يضرب حتى يُفتق بطنه ويُغشى عليه ويطرح على باب الدار، فيغضب لما حل به بنو المغيرة وكان حليفهم، بل يغضب السواد الأعظم من الصحابة لما حل به، وكان من النقباء في مجلس الرسول، ومناقبه كثيرة في الإسلام، فكان بما جرى عليه من أعظم من ألّب على عثمان، وخدم عليا ضروب الخدم، حتى قتل في صِفين.

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

سياسة علي بن أبي طالب:

بويع علي بالخلافة بعد مقتل عثمان، قيل جاءه طلحة والزبير وسألاه البيعة له فقال: لا حاجة لي في أمركم، من اخترتم رضيت به، فقالوا: ما نختار غيرك، وترددوا إليه مرارًا وقالوا: إنا لا نعلم أحدا أحق بالأمر منك، ولا أقدم منك سابقة، ولا أقرب من رسول الله، فقال:[١] دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد غامت،[٢] والمحجة قد تنكرت، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغِ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرًا، وبعد هذا التمنع قصدوه في المسجد فبايعوه وبايعته الأنصار، إلا حسان[٣] بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبا سعيد الخدري، والنعمان بن بشير، ومحمد بن مسلمة، وفضالة بن عبيد، وزيد بن ثابت، قيل: إن عثمان كان ولاهم على الصدقات وغيرها، وكذلك لم يبايع عليًا سعيد بن زيد، وعبد الله بن سلام، وصهيب بن سنان، وأسامة بن زيد، وقدامة بن مظعون، والمغيرة بن شعبة، وسمي هؤلاء المعتزلة لاعتزالهم بيعة علي، وسار النعمان بن بشري إلى الشام بقميص عثمان الملطخ بالدم، فأخذ معاوية بن أبي سفيان أمير الشام يعلقه على المنبر، يحرض أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، ثم على قتال علي؛ لأنه لم يقتل قتلة عثمان.

وطلب علي من معاوية البيعة له فأبى إلا أن يسلم إليه قتلة عثمان أولا، وكتب إلى علي يقول: «لو بايعك القوم الذين بايعوك، وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان - رحمة الله عليهم - ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين.» فأجابه علي: «لعمري، ما

---

(١) نهج البلاغة للرضي.

(٢) غامت السماء وآغامت وتغيمت كله بمعنى؛ أي تلبدت بالغيم؛ أي السحاب.

(٣) تاريخ أبي الفداء، وتاريخ الطبري.

كنت إليهم إلا رجلًا من المهاجرين، أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى.»

على أن معاوية ما كان بالذي[١] ينكر فضل علي واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القَوَد من قتلة عثمان على البيعة أولا، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان، والكلام فيه عن ولد عثمان دون الحكم بن أبي العاص لسنه وقوته على الطلب بذلك، ولمكان قرابته من عثمان، فهو المطالب ضمنا بالأخذ بثأره.

بعث معاوية بكتاب مع أبي مسلم الخولاني[٢] إلى علي بن أبي طالب جاء فيه: وأخرى أنت بها ظنين إيواؤك قتلته - قتلة عثمان - فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك، فلما وقع الكتاب إليه أراده على أن يجيئه من الغد، فدخل عليه أبو مسلم وهو في المسجد؛ فإذا بزهاء عشرة آلاف رجل قد لبسوا السلاح، وهم ينادون كلنا قتلة عثمان، فقال أبو مسلم لعلي إني لأرى قوما ما لك معهم أمر، وأحسب أنه بلغهم الذي قدمت له ففعلوا ذلك خوفا من أن تدفعهم إليّ.

والواقع أن قتلة عثمان كانوا من أكثر القبائل، اختلطوا بعشائرهم وعشائرهم أكثر أتباع علي، وما خالف علي[٣] في البراءة من قتلة عثمان، ولكنهم كانوا عددًا ضخمًا لا طاقة له عليهم، ومن المتعذر عليه أن يسلمهم أو بعضهم وهم عضده ولو كان يعرفهم بأعيانهم، ومسألة وقعت على غير رضاه، ليس من مصلحته أيضاأن يستهدف لغضب عشائر كثيرة تقوم بنصرته اليوم، أما هو فكما روي عنه أنه قال: والله[٤] لو شاءت بنو أمية لأتيتهم بخمسين غلامًا من بني هاشم يحلفون بالله ما قتلت عثمان ولا مالأت عليه.

كان في نفس عائشة أم المؤمنين شيء من علي لما جرى حديث رميها بالإفك في حياة الرسول، وبرأها القرآن مما قذفت به في عدة آيات، ولما كان ما كان من مقتل عثمان كانت في مقدمة من حنق لمقتله، وقامت لسد الفتق الحادث في الإسلام تطالب

(١) الملل والنحل لابن حزم.
(٢) الأخبار الطوال للدينوري.
(٣) الملل والنحل لابن حزم.
(٤) الموافقة بين الصحابة وآل البيت لابن زنجويه.

بدم الشهيد العظيم، وهي تعرف منزلته من الرسول، وبلاءه في خدمة الأمة، وتعرف المتآمرين على قتله، ومن غضوا الطرف عنهم طوعًا أو كرهًا، ورأت ومن معها من الصحابة، ومنهم طلحة والزبير ورهط من بني أمية أهل عصبية عثمان، أن يقصدوا إلى البصرة في الجموع العظيمة التي تبعتهم يطالبون بدم عثمان، وقالوا معاوية بالشام يكفينا أمرها، وجمع علي أربعة آلاف رجل، فيهم جلة من الصحابة، ومنهم أربعمائة ممن بايع تحت الشجرة وثمانمائة من الأنصار، فالتقى الجيشان وعائشة في هودج على جمل، فتمت الهزيمة على أصحاب الجمل، وقتل طلحة والزبير، فكانت عدة القتلى من الفريقين نحو عشرة آلاف، وهذه أول مرة التقى فيها المسلم بالمسلم بالسلاح، مقدمة مشئومة استفتحت بها خلافة علي.

فرغ علي من حرب الجمل، فانتظم له أمر العراق ومصر واليمن والبحرين وعمان واليمامة وفارس والجبل وخراسان والحرمين، ولكن معاوية في الشام والجزيرة وثغورهما لم يبايع ولم يشايع، بل يطالب بدم عثمان بكل ما لديه من حيلة، وأهل الشام بايعوه على المطالبة بذلك، يقاتلون معه حيث أراد من أراد.

واتفق معاوية مع عمرو بن العاص على أن يسيرا يدا واحدة في المطالبة بدم عثمان، وكتبا بينهما كتابًا ببيت المقدس على التناصر والتخالص والتناصح في أمر الله والإسلام، لا يخذل أحدهما صاحبه بشيء، ولا يتخذ من دونه وليجة،[1]

ولا يحول بينهما ولد ولا والد أبدًا ما حيّا، فإذا فتحت مصر فإن عمرا على أرضها، ومعاوية أمير على عمرو في الناس وفي عامة الأمر، حتى يجمع الله الأمة، فإذا اجتمعت فإنهما يدخلان في أحسن أمرها على أحسن الذي بينهما في أمر الله.

سار علي من العراق بجيشه يريد الشام لقتال معاوية، وسار معاوية من الشام للقاء جيش علي في العراق، والتقى الجيشان بصفين على الفرات، واقتتلوا قتالًا شديدًا لم يقتتل المسلمون مثله، وخاض علي المعارك بنفسه، فقتل سبعون ألفًا من الفريقين على أصح الروايات، منهم مئات من الصحابة، وفيهم القراء والعلماء، فكانت مصيبة الإسلام

---

(١) وليجة الرجل خاصته وبطانته.

بهم عظيمة، «وما كف القتال أيام صفين إلا لما أمر معاوية جماعته[١] أن ينادوا في سواد الليل نداء معه صراخ واستغاثة، يقولون: يا أبا الحسن، من لذرارينا من الروم إن قتلتنا، الله الله في البقية الباقية، كتاب الله بيننا وبينكم.» وغدا جماعة معاوية وقد رفعوا المصاحف على الرماح، وقلدوها أعناق الخيل، والناس على راياتهم قد أصبحوا للقتال.

وجرت المهادنة بين الجيشين على أن يكون لعلي العراق ولمعاوية الشام، لا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو، على أن يحكم الفريقان بينهما حكمين، حكمًا من جهة علي، وحكمًا من جهة معاوية، فحكم علي أبا موسى الأشعري، وحكم معاوية عمرو بن العاص، ويكون الخليفة من يتفق الحكمان على توليته، «وكتبوا بينهم كتابا[٢] أن يوافوا رأس الحول بأذرح،[٣] فينظروا في أمر هذه الأمة، فافترق الناس فرجع معاوية بالألفة من أهل الشام، وانصرف علي إلى الكوفة بالاختلاف والدغل، فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه، وقالوا: «لا حكم إلا لله» وعسكروا بحروراء[٤] فبذلك سموا الحرورية ... وساروا إلى النهروان، فعرضوا للسبل وقتلوا عبد الرحمن بن خباب بن الأرت، فسار إليهم علي فقتلهم وقتل منهم ذا الثدية،[٥] وذلك في سنة ثمان وثلاثين، ثم انصرف علي إلى الكوفة، فلم يزل بها يخافون عليه الخوارج من يومئذ إلى أن قُتل، رحمه الله، واجتمع الناس بأذرح في شعبان سنة ثمان وثلاثين، وحضر سعد بن أبي وقاص وابن عمر وغيرهما من أصحاب رسول الله، فقدم عمرو أبا موسى فتكلم فخلع عليا، وتكلم عمرو فأقر معاوية، وبايع له فتفرق الناس على هذا.»

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

(٢) طبقات ابن سعد.

(٣) أذرح: بلدة في أطراف الشام من أعمال الشراة مجاورة لمعان، وهي اليوم خراب.

(٤) حروراء قرية بظاهر الكوفة، وقيل موضع على ميلين منها (ياقوت).

(٥) ذو الثدية لقب عمرو بن ود العامري، كان فارس قريش يوم الخندق، وقتل وهو ابن مائة وأربعين سنة (التاج للزبيدي).

وأخذ علي بالعراق يقنت في الصلاة ويدعو على معاوية، وعلى عمرو بن العاص، وعلى الضحاك، وعلى الوليد بن عقبة، وعلى الأعور السلمي، ومعاوية يقنت في الصلاة ويدعو على علي، وعلى الحسن، وعلى الحسين، وعلى عبد الله بن جعفر.

وكان سعد بن أبي وقاص من الصحابة الذين اعتزلوا الاشتراك بصفين، وقال إذا كان غزو الكفار قاتلنا، فأما قتال الفتنة والبغي، فلا نقاتل أهل القبلة،[١] أما عبد الله بن عمر فكان يقول: لا أقاتل في الفتنة وأصلي وراء من غلب،[٢] وقال: إنما كان مثلنا في هذه الفتنة كمثل قوم كانوا يسيرون على جادة يعرفونها، فبينما هم كذلك إذ غشيتهم سحابة وظلمة، فأخذ بعضنا يمينا وبعضنا شمالا، فأخطأنا الطريق، وأقمنا حيث أدركنا حتى تجلى عنا ذلك، فأبصرنا الطريق الأول فعرفناه فأخذنا فيه، إنما هؤلاء فتيان قريش يتقاتلون على هذا السلطان، وعلى هذه الدنيا، والله ما أبالي ألا يكون لي ما يقتل فيه بعضهم بعضًا بنعلي.

ومن مكملات هذه الفتنة، فتنة الخلافة بين علي ومعاوية، قيام الخوارج على علي، وكانوا من أصحابه وأنصاره يوم الجمل وصفين، وهم يزيدون على اثني عشر ألفا، ساءهم رضا علي بالتحكيم، وقالوا لا حكم إلا لله، فإن الله يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠][٣]

وكفروا عليا بفعله واعتزلوه، فعاتبهم علي فلم يفد فيهم، ثم قاتلهم وظهر عليهم، وقتل منهم نحو أربعة آلاف، ولم تطفأ نائرتهم، وظلت سيوف فلولهم مصلتة قرونا بعده، ونشأ من ذلك مذهب جديد قام على التشينع على علي، كما نشأ مذهب الشيعة الذي قام على التشيع له، والأصل في هذه المذاهب والمتاعب مقتل عثمان، وتعذر قصاص قاتليه على علي، وحرص هذا على الخلافة.

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي.

(٢) طبقات ابن سعد.

(٣) أخبار الخوارج مفصلة في الكامل للمبرد، وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

كان المأمول بعد أن اهتدى العرب بالرسول، أن يحتكموا إلى كتابه في كل ما شجر بينهم، لا أن يجعلوا فصل الخطاب للسيف في دق أمورهم وجلها، على ما كانوا في الجاهلية، وأن تعتدل طبيعة العرب المأخوذة بحب الحرب والتناغي بالسيادة، لا ترى تحقيقها إلا من طريق العصبية القبلية، ولا تنام عن الثأر تطلب به، وعادت نغمة العصبيات التي جاء الإسلام بمحوها تتغلب على نفوسهم، مع ما غلب على أمزجة سوادهم الأعظم من المزاجين العصبي والصفراوي، وكان الخطب بالعصبيات عند العرب كالخطب بالأحزاب عند الأمم الحديثة أو أدهى وأمر.

نعم! ما ارتاحت العرب زمنًا طويلًا في الإسلام من أحداث وفتن يتقاتلون فيها، فيفني بعضهم بعضًا، على نحو ما كان أجدادهم، كأن الدين لم يصقل من نفوسهم إلا ظواهرها، على حين دل ما بدا منهم من نصرة الشارع الأعظم، ثم من نصرة صاحبيه من بعده، على أن الإسلام هذّب كثيرًا من حواشيهم، ثم بدأ هذا التهذيب يضعف بجرأة العامة على الخاصة، وأي جرأة أعظم من قتل أمير المؤمنين عثمان؟ وقديما كان قتل الملوك من أشأم ما يحدث في الأمم وقلما أتى بخير، فكيف بمقتل هذا العظيم؟

كان للعرب في الجاهلية بعض العذر في شن غاراتهم، وأرضهم مجدبة، وعيشهم ضنك، وأمرهم شتات، وأي معذرة لهم في الإسلام، وقد أذكى الدين عقولهم، ولقنهم الرحمة، ودمث من أخلاقهم، وقضى أو كاد على العادات الضارة فيهم، وفتح عليهم أبواب النعمة في الأقطار التي دخلوها فاتحين، ووضعوا أساس الملك العتيد، فدرت لهم أخلاف البركات، في كل بلد نزلوه واستثمروه.

دل اقتتال المسلمين يوم الجمل وصفين والنهروان، واغتيال الثالث والرابع من الخلفاء بأيدي جماعة من المسلمين، على استسهال العرب سفك الدماء، وأنهم أبوا إلا أن يتحاكموا إلى السيف، ويعمدوا إلى التقاتل، وأن القوانين مهما سمت لا تغير كثيرا من روح من يأخذون أنفسهم بها، وقد يخالفونها عند أقل بادرة، ولكم أضاع العرب من قوتهم، ولما يمض جيل واحد على تكونهم، وإذا عرفنا أن المسلمين كانوا على ما

روى الشافعي[١] ستين ألفًا لما قبض الرسول، ثلاثون ألفًا بالمدينة وثلاثون ألفًا في قبائل العرب وغير ذلك، وأنه هلك منهم ألوف في حروب الردة وحروب الشام والجزيرة وإرمينية وإفريقية والعراق وفارس على عهد أبي بكر وعمر وعثمان، أدركنا عظم هذه النازلة بهذا القدر من الرجال الذين قتلوا في حروب علي.

كانت وقعة صفين المشئومة مما عاق الإسلام عن الانتشار، ووقف بالفتوح العربية عند حد كاد يُطمع الأمم المجاورة برده على أعقابه إلى أقصى الأرض العربية، ولولاها لكتب لمعاوية أن يفتح القسطنطينية، وكان أعد لذلك في أرض الشام وبحره القوتين البرية والبحرية، فلما ظهرت مسألة علي اضطر معاوية أن يصانع الروم لشغله بعلي،[٢] وأن يرجع عن عزمه، أو يؤخر إنفاذه إلى أجل غير معلوم، ولو فتحت القسطنطينية لسرى الإسلام إلى الغرب على أيسر حالة، وكان في الإمكان توقي هذه الحرب الحاصدة، لو لجأ المتخاصمان لأول الأمر إلى التحكيم، ولو قدر كل واحد منهما حالة الأمة وما يتربص لها أعداؤها، ما امتشق أحدهما حساما في سبيل غرضه مهما كان شريفا؛ لأن هناك ما هو أشرف منه، وهو بث الدعوة وحماية البيضة، ولو سمع علي نصح بعض هرقت هذه عقلاء الصحابة ما تسرع في عزل عمال عثمان، وفي مقدمتهم معاوية، ولما أهرقت هذه الدماء المحرمة ولكن عليا أصيب بكرامته ولما أبى معاوية مبايعته، أو يسلم إليه القتلة في جيشه، ومن أخلاق علي ألا يسكت ساعة عمن يكون غير راض عنهم، ويعد مصانعتهم خروجا على قواعد الصدق والإخلاص.

أشار المغيرة بن شعبة،[٣] وهو المعروف بدهائه وبعد نظره، على علي أن يقر معاوية على الشام تسمح له طاعته، قال: فإن أهل الشام قد ذاقوه فاستعذبوه ووليهم عشرين سنة، لم يعتبوا عليه ولم يعتبوه[٤] في عرض ولا مال، فقال علي: «والله لو سألني قرية ما وليته إياها.» قال المغيرة: «أراه سيلي أرضين وقريات.» وكان الأمر كما تنبأ

---

(١) قواعد الحديث لابن الصلاح

(٢) مروج الذهب للمسعودي.

(٣) روضة العقلاء لابن حبان البستي.

(٤) أعتبه: سره بعد ما ساءه.

المغيرة، وما قدر عليّ، على ثقوب ذهنه وكثرة علمه، أن يقدر قوة خصمه فاحتقره، ورأى أن دينه يمنعه من أن يقره، وهو يعتقد في إقراره الضرر له وللجماعة.

أدرك علي بعد الدخول في العمل، أن جنده مشتت الأهواء تغلب عليه الفوضى، على ما عرف من بعض شيعته من الاستماتة في سبيل دعوته؛ ولطالما تمنى لو يقايض عشرة من جنده بواحد من جند معاوية.[١]

ومن خطبه لما بلغه مقتل محمد بن أبي بكر أمير مصر، وتملك عمرو بن العاص لها باسم معاوية: «أوليس عجيبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه بغير عطاء، ويجيبونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء، وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقية الناس على معاوية، وطائفة منكم على العطاء، فتتفرقون عني وتعصونني وتختلفون عليّ.»

وريت زناد معاوية بأهل الشام؛ لأنه طالما أحسن إليهم، فكان في أطوع جند، وجنده يعتقد أن صاحبه على الحق، وروي عنه أنه قال:[٢] أعنت على علي بن أبي طالب بأربع خصال: فقد كان ظُهَرة عُلَنة لا يكتم سرا، وكنت كتوما لسري، وكان لا يسعى حتى يفاجئه الأمر، وكنت أبادر إلى ذلك، وكان في أخبث جند وأشدهم خلافا، وكنت في أطوع جند وأقلهم خلافا، وكنت أحب إلى قريش منه، فنلت ما شئت، فلله من جامع إلي ومفرق عنه!

قال علي بعد وقعة صفين، وقد آلمه ما أهرق من دماء المسلمين، وما جرت عليه الخلافة من المتاعب، رحم الله عمي العباس كأنما كان يطلع على الغيب من وراء ستر رقيق، وصدق والله ما نلت من هذا الأمر شيئا إلا بعد شر لا خير معه، وكان العباس أشار عليه لما اشتد مرض رسول الله أن يسأله إن كان الأمر في بني هاشم يعطوه، وإن كان في غيرهم يوصي بهم، فقال علي: إن منعناه لم يعطناه أحد.

---

(١) نهج البلاغة للرضي.

(٢) المحاسن والأضداد للجاحظ.

فلما قبض الرسول دعي علي للبيعة فقال: في جهاز رسول الله شغل، ولن يفوت الأمر، فبويع في السقيفة لغيره، ولما طعن عمر أشار عليه العباس ألا يدخل في الشورى؛ لأنه إن اعتزلهم قدموه، وإن ساواهم لم يقدموه، ولما أخذ عثمان في الأمور قال له العباس، وقد وقع في نفسه أن عثمان سيقتل: والله لئن كان ذلك وأنت حاضر بالمدينة ليرمينك الناس بدمه، وإن فعلوا لا تنال من هذا الأمر شيئًا إلا شرًا لا خير معه.

يقول ابن حزم[١] في معرض الكلام على أن عليا كان أسوس الصحابة، بعد أن ذكر ما قام به أبو بكر من حروب الردة حتى ثبت الإسلام، وما قام به عمر وعثمان من حروب انتهت بظهور الدين في الأقطار: «ثم قد رأى الناس خلاف ذلك كله، وافتراق كلمة المؤمنين، وضرب المسلمين بعضهم وجوه بعض بالسيوف، وشك بعضهم قلوب بعض بالرماح، وقتل بعضهم من بعض عشرات الألوف، وشغلهم بذلك عن أن يفتح من بلاد الكفر قرية، أو يذعر لهم سرب،[٢] أو يجاهد منهم أحد، حتى ارتجع أهل الكفر كثيرا مما صار بأيدي المسلمين من بلادهم، فلم يجتمع المسلمون إلى يوم القيامة، فأين سياسة من سياسة.»

ويقول ابن تيمية:[٣] «تولى علي والفتنة قائمة، وهو عند كثير منهم ملطخ بدم عثمان، والله يعلم براءته مما نسبه إليه الغالون فيه، والمبغضون لغيره من الصحابة، فإن عليا لم يعن على قتل عثمان ولا رضي به، كما ثبت عنه وهو الصادق أنه قال ذلك، فلم تصفُ له قلوب كثير منهم، ولا أمكنه هو قهرهم حتى يطيعوه، ولا اقتضى رأيه أن يكف عن القتال، وظن أن به تحصل الطاعة والجماعة، فما زاد الأمر إلا شدة، وجانبه إلا ضعفا، وجانب من حاربه إلا قوة، والأمة إلا افتراقا، حتى كان في آخر أمره يطلب هو أن يكف عنه من قاتله، كما كان في الأول يطلب منه الكف، وضعفت الخلافة ضعفا أوجبت أن تصير ملكا، فأقامها معاوية ملكًا برحمة وحلم، ولم يتول أحد من الملوك خيرًا من معاوية، فهو خير ملوك الإسلام، وسيرته خير من سيرة الملوك بعده.»

---

(١) الملل والنحل لابن حزم.

(٢) السرب بكسر السين: النفس، والسرب: الجماعة من النساء والبقر والشاء والقطا والوحش.

(٣) منهاج السنة لابن تيمية.

وقال أيضًا: «إن معاوية بقي في الشام عشرين سنة أميرًا وعشرين سنة خليفة، ورعيته من أشد الناس محبة وموافقة له، وهو من أعظم الناس إحسانا إليهم، وتأليفا لقلوبهم، حتى قاتلوا علي بن أبي طالب، وصابروا عسكره إلى أن قاوموهم وغلبوهم، قاتلوا مع معاوية؛ لظنهم أن عسكر علي فيهم ظلمة معتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان، وأنهم يقاتلونهم دفعا لصيالهم، وقتال الصائل جائز؛ ولهذا لم يبدءوهم بقتال حتى بدأهم أولئك؛ ولهذا قال الأشتر النخعي: إنهم ينصرون علينا؛ لأنا نحن بدأناهم بالقتال، وعليٌ كان عاجزا عن قهر الظلمة من العسكرية، ولم تكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به، وأعوان معاوية يوافقونه. ا.هـ.»

لا جرم أن عليا اضطرته الحال إلى الوقوع فيما وقع فيه من قتال المسلمين، وعمل ما عمل وهو كاره، ولم يواته الحظ في خلافته، وكاد ألا يفكر في غير رد المطالبين بدم عثمان، والناشزين على خلافته من الخوارج وأهل الشام وغيرهم، ورأى انفراج قلوب الأمة بمقتل عثمان، وأحس أكثر من غيره بما وقع من تشتت في الأهواء، وتأصل في الأحقاد التي انتقلت من الأجداد إلى الأحفاد، وما كان له مفزع غير السيف، والسيف لا تؤمن غائلته على الغالب والمغلوب، وهو شر لا بد منه، ولقد قالوا: «إن في القرآن أربعة[1] سيوف: سيف على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤] وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم في سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الأحزاب، وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، وسيف على أهل البغي وهو المذكور في سورة الحجرات، ولم يسل الرسول هذا السيف في حياته، وإنما سله علي في خلافته، وكان يقول: أنا الذي علّمت الناس قتال أهل القبلة، وله -صلى الله عليه وسلم- سيوف أخر، منها سيف على أهل الردة، وهو الذي قال فيه من بدل دينه فاقتلوه، وقد سله أبو بكر من بعده في خلافته على من ارتد من قبائل العرب، ومنها سيف على المارقين، وهم أهل البدع كالخوارج، وروي عن علي أن النبي أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين، وقد

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب.

حرق علي طائفة من الزنادقة فصوب ابن عباس قتلهم، وأنكر عليه تحريقهم بالنار، فقال علي: ويح ابن عباس لبحّاث عن الهنات.»

وبعد، فإن الخلفاء الراشدين قاموا بخلافة النبوة على أكمل وجه أمكن، وإذا لاحظنا اليوم أنه وقع من بعضهم شيء فهو منهم محض اجتهاد، والمجتهد يصيب ويخطئ، والسياسة صعبة المراس على كل الناس، وما كان للبشر أن تجيء أعمالهم تامة من كل وجه، ومن المؤلم أن يستغل هذه الحوادث المرمضة في سبيل الخلافة أناس عز عليهم أن يقوض العرب بالإسلام عرش ملوكهم وهم الفرس، فيندسون في الغمار ويتخذون من آل البيت تُكأة، ويزعمون لعلي أنه بُغي عليه منذ أول يوم، ويدعون له العصمة على نحو ما كان أجدادهم يدعونها لملوكهم من المجوس، وأن يكون من عبد الله بن سبأ وأمثاله ممن تظاهروا بالإسلام، وهو لم يمس شغاف قلوبهم، ما كان من الدعاية لتأليب الناس على عثمان، وكان من أثر دعايتهم تمزيق الأمة طرائق وحزائق.

هذا، وعلي حرق من غلوا فيه، وأنكر ابنه محمد بن الحنفية على شيعته دعواهم فيه أنه يعلم المغيبات وأن علمه لدني، ومن بعده زاد الغلو فسكت آل البيت عما ينسبه أنصارهم إليهم ووضعوهم في غير مواضعهم؛[1] لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم علم ما هو كائن.

عن سويد بن غفلة،[2] وكان من كبار التابعين، صحب أبا بكر وعمر وعثمان وعليا، واختص بعلي وقاتل معه، قال: مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر ويتنقصونهما، فأتيت عليا فذكرت ذلك له، فقلت: إني مررت بقوم من الشيعة يذكرون أبا بكر وعمر ويتنقصونهما، ولولا أنهم يعلمون أنك تضمر ما هما عليه لم يجسروا على ذلك، قال: أعوذ بالله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل، لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل: أخوا رسول الله ووزيراه، ثم نهض دامع العين يبكي قابضا على لحيته ينظر فيها وهي بيضاء، وقد اجتمع الناس فقام فخطب خطبة موجزة بليغة، ومما قال: ما بال

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) الموافقة بين الصحابة وأهل البيت لابن زنجويه، وتفليس إبليس لابن الجوزي.

أقوام يذكرون سيدي قريش وأبوي المسلمين بما أنا عنه متنزه، ومما يقولون بريء، وعلى ما يقولون معاقب، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لا يحبهما إلا مؤمن تقي، ولا يبغضهما إلا فاجر رديء، صحبا رسول الله بالصدق والوفاء، يأمران وينهيان، ويعاقبان فما يجاوزان فيما يقضيان.

وبعد أن امتدح أبا بكر وعمله في أهل الردة، قال: إنه سار بسيرة رسول الله حتى قبض، ثم ولي الأمر من بعده عمر بن الخطاب، واستأمر في ذلك الناس، فمنهم من رضي ومنهم من كره، وكنت ممن رضي، فوالله ما فارق عمر الدنيا حتى رضي من كان له كارها، فأقام الأمر على منهاج النبي وصاحبه يتبع بآثارهما، كما يتبع الفصيل إثر أمه إلى أن قال: فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني، وأنا منه بريء، ولو كنت تقدمت في أمرهما لعاقبت أشد العقوبة، فمن أُتيت به بعد مقامي هذا فعليه ما على المفتري.

وجيء علي برجل وهو بالكوفة يتنقص أبا بكر وعمر فقال: يا قَنْبر اضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين علام تضرب عنقي وإنما غضبت لك؟ قال: وما ذاك ويلك! قال: إني رجل غريب ما صحبت رسول الله، ولا علمت مكان هذين الرجلين منه ولا منك، وإنما سمعت من بعض من يغشاك يفضلك عليهما، ويذكر أنهما ظلماك حقا، وتقدماك في أمرك، قال علي: أوتعرف القوم؟ قال: لا، إلا بأعيانهم عند نظري إليهم، قال: أما والله ما تقدماني إلا بأمر الله وبأمر رسوله، وما ظلماني ما يزن ذرة،[1] ولولا أنك أقررت

(١) هذا الكلام، راويه معتزلي يرى الكذب كبيرة، بل من أعظم الكبائر التي تكاد تُخرج عن الدين، لا ينطبق على ما نسبه الرضي إلى علي في نهج البلاغة، وسماه الخطبة الشقشقية، وفيما زعم أن عليا قال: والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة، وإنه يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجًا، أرى تراثي نهبا، حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده، فيا عجبا! بينما هو يستقبلها في حياته؛ إذ عقدها لآخر بعد وفاته، إلى أن قال: حتى إذا مضى لسبيله جعلها قرن في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله ويا للشورى، متى اعترض الريب في مع الأول منهم حتى صرت أ إلى هذه النظائر! وأغرب من هذا أن يأتي الرضي في هذه الخطبة بكلام في الخليفة الثالث نعوذ أمير المؤمنين - عليه السلام - أن يقوله أو ما يشبهه، ومعنى هذا الكلام أن هم عثمان كان الأكل والرجيع إلخ. ومن حاول أن يخدم الخليفة الرابع بأمثال هذه الخطب، فينحله ما لم يقله،

بغربتك، وقلة معرفتك بشيخي المسلمين، لضربت عنقك، ثم قال: يا قنبر، ناد في الناس الصلاة جامعة، فاجتمع الناس له ظهرًا فصلى بهم، ثم صعد المنبر فقال: أيها الناس، إن الله بعث محمدا وقد اخلولق الإسلام، وذهب صفاء الدين، وظهر الظلام بالكفر، والناس في عَمْية جاهلية جهلاء، يعبدون الأصنام، ويعظمون الأوثان، ويكفرون بالرحمن، فقال: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله، فقالوا بأجمعهم: كذبت ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فقال أبو بكر: صدقت، وأنا إذ ذاك طفل صغير لا أغني عن نفسي شيئ في حجر رسول الله وفي بيته، فلم يزل أبو بكر الصديق معه على تلك الحال، يضرب الناس ويضربونه، ويغلبهم ويغلبونه، ويقاتلهم ويقاتلونه، ويخافهم ولا يخافونه، يظهر دينه ولا يكتم إيمانه، حتى قالت قريش: إن ابن أبي قحافة مجنون، فلم يكن أحد أولى بالإسلام منه، ولا أكرم على الله في هذه الأمة بعد نبيها منه، ولا خيرًا منه، ولا أفضل في الدنيا والآخرة، وإن أقوامًا يفضلونين عليهما في قلوبهم بقية النفاق، يريدون فرقة أهل الإسلام واختلاف الأمة ... وفي هذا مقنع لمن «جودوا الجنون في الغلو».

=

يسيء إليه أكثر ممن خرجوا عليه في سلطانه، وبعد هذا ألا تسقط دعوى من يعزون كل ما في نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب، وإن قال ابن أبي الحديد شارح النهج في معرض الدفاع عن هذا الكتاب ليرد قول من قال: إنه كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة: «إنك إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كلامًا واحدًا ونفسًا وأحدًا، وأسلوبًا وأحدًا، وإن المحدثين كلهم أو جلهم والمؤرخين نقلوا كثيرا منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك.» وقوله: إن نهج البلاغة نسق واحد، كلام لا يوافق عليه العارفون بأساليب البلاغة؛ لأن فيه ألفاظا لم تعرفها العرب إلا بعد القرن الثاني للهجرة، أما احتجاجه بأن بعض المحدثين، أو جلهم، أو بعض المؤرخين نقلوا هذا الكلام فلا يقوم حجة يعتد بها على صحته، فما كل من نقل حرر وصحح السند، ولا كل من اقتبس كلامًا اعتقد صحته، وإن من وضعوا على الرسول أحاديث ملفقة يستحلون أن ينحلوا غيره كلامًا لم يتكلم به؛ لتأييد دعوتهم وسياستهم. يقول ابن الجوزي في تلبيس إبليس: إن من غلوا في حب علي وضعوا أحاديث في فضائله أكثرها تشينه وتؤذيه.